الحضارة

نشوءها وتقلباتها في سوسيولوجيا مالك ابن نبي

إعداد: أ/ باشيخ أسماء

"قسم علم الاجتماع" جامعة أدرار"

مدخل:

لقد بات العالم المعاصر الآن يعيش بحتمية وجود المجتمعات المتأصلة والراقية في طموحاتها، أي التي تحيا على حضارة أو تعيش لتقيم حضارة، وذلك لكون المجتمع الحضاري آلية من آليات تحقيق الاستقرار الاجتماعي وكذا تحقيق الانصهار تحت هوية مميزة في مضامينها وفي غاياتها.

هذا مع أن المجتمعات بدورها لا تتواجد لتشبع طموحات الوضع الاجتماعي المعاصر فحسب بل لتسلك طرق الريادة الحضارية، فتسعى بذلك لضرب جذورها في التاريخ، وتوسيع نطاقها في المكان، وإعلاء شأنها في الثقافة والدين والفكر وجل العلوم التي يتيحها لها الزمان، من ذلك فإن ميلاد المجتمع تعتريه تساؤلات لا يجب إلا أن تكون حضارية في أفقها ليرصد هذا المجتمع الرقي والزهو المنشود من هذه الحضارة .

هكذا على ميلاد المجتمع أن يسلك دربا من دروب التبصر باليقين الحضاري لتفعيل ذلك الميلاد؛ هذا المفهوم العميق في فحواه . اذا ما أردنا أن نراه كذلك . خاصة اذا ما التحم بمعاني الحضارة، و الذي كرس له مالك ابن نبي قلمه وقدمه لنا في أحد مؤلفاته بمثل هذا المسمى المبتدع من فيض أفكاره (كتاب ميلاد مجتمع لمالك ابن نبي) .

فلم تكد تخلوا مؤلفات مالك ابن نبي من حديثه عن الحضارة التي شكلت قضية جوهرية في تحليلاته التي صاغها في تلك الطروحات التي انطلقت من سابقيها منتقدة لها للوصول إلى طرح شمولي المبنى، جاد الصياغة، دقيق المرمى، اذ كذلك كان أسلوب مالك.

ذلك مالك ابن نبي ابن الجزائر الذي ولد عام 1905 بقسنطينة وأنهى دراسته الثانوية قبل أن يغادر إلى فرنسا إذ درس في معاهدها ونهل من علومها المختلفة ليتخرج مهندسا كهربائيا من معهد اللاسلكي عام 1935 بعد إن فشل في الالتحاق بمعهد الدراسات الشرقية لكونه مسلما هذا مع أنه قد استفاد من دراسته للهندسة والرياضيات في ترتيب أفكاره وتهذيبها لينطلق منها إلى التحليل العلمي لمشاكل العالم الثالث عامة والعالم الإسلامي خاصة[1].

كما يبدو جليا تأثر مالك ابن نبي بهذا التخصص العلمي في تحليله للواقع الاجتماعي إذا حاول التوليف بينهما الأمر الذي منح طروحاته المتبصرة والهادفة أسلوبها الخاص الذي لا ينعت بها إلا ابن نبي.

[1] أحمد علي ويس، "مشكلات الحضارة في فكر مالك ابن نبي"، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، العراق، ب ت،ص 268.

ومن هذه الطروحات العميقة والمترامية والشمولية نحاول من خلال هذا الطرح الآتي عرضه تفكيك وإبراز مميزات فكر ابن نبي في حديثه عن الحضارة وتقلباتها ذلك منتهجين للتسلسل التالي:

المبحث الأول :مفهوم الحضارة ودلالاتها عند مالك ابن نبي.

المبحث الثاني: موقع العالم العربي الإسلامي من الحضارة.

المبحث الثالث:رباعية المعادلة الحضارية عند مالك ابن نبي.

أولا :تحليل المشكلات الثلاث للحضارة (عناصرها).

أ/ مشكلة الإنسان (توجيه الثقافة، توجيه العمل،توجيه رأس المال، المرأة، الزي، الفنون الجميلة).

ب/ مشكلة التراب.

ج/ مشكلة الزمن.

ثانيا: الفكرة الدينية ومسمى المركب الحضاري.

❖ المبحث الأول: مفهوم الحضارة ودلالاتها عند مالك ابن نبي:

يعتبر مفهوم الحضارة من المفاهيم التي دارت حولها نقاشات كثيرة سواءا حول أسبقية تناولها على مفاهيم أخرى أو حول تقاطعاتها مع مفاهيم قريبة منها كالثقافة والمدنية وغيرهما.

وعلى العموم من ذلك فقد اعتبر رواد فلسفة التاريخ من الأوائل في اهتمامهم بالحضارة حيث كانوا يتناولون تاريخ المجتمعات وتطورها من حال إلى حال ونذكر من هؤلاء ابن خلدون و مونتسكيو وفيكو ...وغيرهم كثير.

وهي مثلا حسب تعريف كروبر Krober «تعبر عن الأفكار التقليدية المتصلة بالقيم والأنظمة وهي وليدة الحدث الاجتماعي الذي يحدد عناصر الحضارة المقبلة التي سيشيدها المجتمع الواحد»[1].

أما ماليونفسكي فيرى «أنها ردة فعل للحاجات البشرية ويشترك كلايدكلاهون معه في محاولة التعريف هاته فيقول أن الحضارة هي نتاج تاريخي لتنظيم المعيشة وذلك من خلال مشاركة الجماعة، فتصور الحضارة يكتمل بلغة الجماعة التي تنتمي إليها، وكذالك تقاليدها وعاداتها وقوانينها المحتوية في أفكارها التي تحركها والاعتقادات والقيم وما يتضح من خلال وسائلها المادية وأنماط الفن المختلفة»[2].

أي أن الحضارة وفق هذا التصور هي نتاج اشباع الحاجات الإنسانية (أكل، شرب، تعلم..) وتنظيمها أيضا بحيث تتجلى ملامح هذه الحضارة من خلال عدة آثار منها اللغة العادات والتقاليد، والقيم، الفن، الوسائل المادية؛ بحيث هذه الحضارة حسب كلايدكلاهون منصهرة في شكل أفكار متحركة أي محتوية في أفكار المجتمع.

---

[1] فضل الله محمد إسماعيل، الايديولوجيا وفلسفة التاريخ، بستان المعرفة، الإسكندرية، 2005، ص 140.

[2] نفس المرجع، ص 140.

ويضيف **ولديورانت** على هذا أن الحضارة هي آلية اجتماعية بيد المجتمع لإنماء رصيده الثقافي وهذا ما نلمسه في تعريفه الذي يقول فيه أن الحضارة «هي نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من انتاجه الثقافي حيث تتألف الحضارة من عناصر أربعة هي: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون»[1].

أما عن دلالات الحضارة عند **مالك ابن نبي** فهي لها من الخصوصية بما كان ففي أحد تعريفاته يشير إلى أن الحضارة هي جملة العوامل المعنوية والمادية التي ينتجها مجتمع ما حيث يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره»[2].

وفي تعريف آخر أين نلمح فيه تأثير البيولوجيا عليه حيث يرى أن الحضارة «هي مجموعة من العلائق بين المجال الحيوي (البيولوجي) حيث ينشأ ويتقوى هيكلها وبين المجال الفكري حيث تولد وتنمو روحها فعندما نشتري منتجاتها فإنها تمنحنا هيكلها وجسدها لا روحها»[3].

فالحضارة بذلك مادة وروح و مالك ابن نبي لا يقصد هنا من الروح معناها السطحي بل هو ينتقد بحدة تلك المجتماعات التي تؤسس حضارتها وفق مبدأ الاستيراد الجاهز لتكنولوجيا لأنها حسبه هي تكنولوجيا سليلة ثقافة دخيلة وهي لا تملك روح المجتمع الوافدة إليه.

من ذلك يرى مالك ابن نبي أن الحضارة الحقة هي التي تبني آلياتها بشكل ذاتي حيث «أن المقياس العام في عملية الحضارة هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها وسيكون من السخف والسخرية حتما أن نعكس هذه القاعدة حيث نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها»[4] .

وقد أعطى مالك ابن نبي في هذا الإطار مفهومين من إنتاجه يعبران عن وضعيات للحضارة المزيفة وهما[5]:

1) **المفهوم الأول: الحضارة الشيئية**: وهي التي تكدس أشياء الغرب بشراء الكم الهائل من الأشياء الغربية ...والعالم الإسلامي يعمل منذ نصف قرن على جمع أكوام من منتجات الحضارة أكثر من أن يهدف إلى بناء حضارة.

2) **المفهوم الثاني: الحالة الحضارية**: هي شعورنا أننا في حضارة نتيجة تجمع عدد كبير من منتجات الحضارة.

---

[1] عبد المجيد عمر التجار، فقه التحضر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص 21.

[2] مالك ابن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر:بسام بركو و أحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، 2002، ص 32.

[3] مالك ابن نبي، شروط النهضة، تر:عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ب ت، ص 43.

[4] نفس المرجع، ص ص 42 . 44.

[5] نفس المرجع، ص ص 42 . 44.

شكل رقم 01: أشكال الحضارة بمنظور مالك ابن نبي.

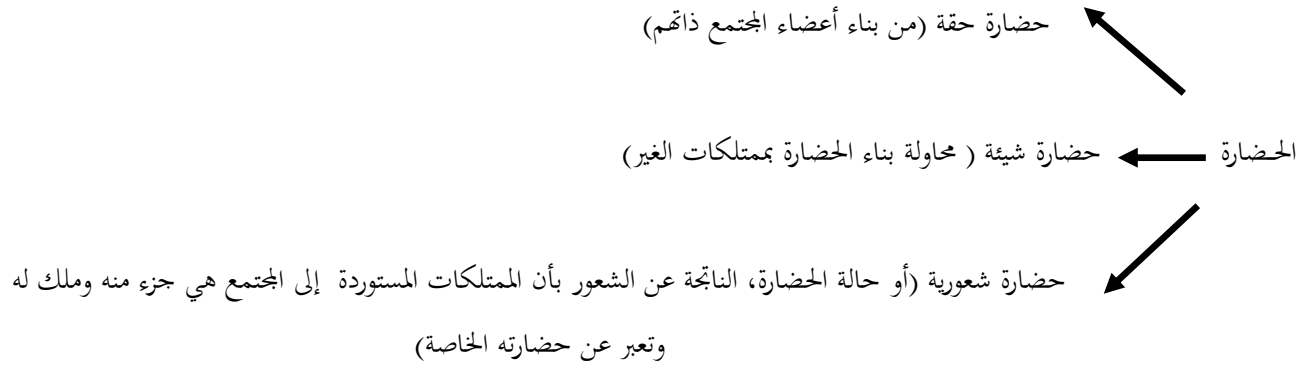

إعداد الباحث.

❖ المبحث الثاني: موقع العالم العربي الإسلامي من الحضارة:

لقد شكل موضوع الحضارة بؤرة اهتمام مالك ابن نبي وهو ما يبدو جلي في إسهاماته التأليفية التي لم يخلو أي واحد منها من الإشارة فيه من قريب أو بعيد لأهمية بناء الحضارة و تحديد آليات هذا البناء وذلك لأنه كان في الأساس يناضل للقضية ويسعى إلى تبصير الأفراد بأهميتها وضرورة جعلها قضية لهم أيضا.

كما كان **مالك ابن نبي** مبشرا لضرورة قيام حضارة بالمعاني التي استرسل في طرحها من خلال صفحات مؤلفاته كما قد كان منتقدا للمعاني الحضارية الشعبوية التي لا تقيم حضارة بقدر ما هي تصطنع وجودها فيشير **مالك ابن نبي** بذلك إلى المجتمعات التي تستأنس بنومها وتستمتع بمناماتها الوردية المظللة التي تشعرها أنها على أفضل حال فهي بذلك بعيدة عن مسمى الحضارة ومقصية من التاريخ وذلك «لأن من عادة التاريخ ألا يلتفت للأمم التي تغط في نومها وإنما يتركها لأحلامها التي تطربها حينا وتزعجها حينا آخر، تطربها إذ ترى في منامها أبطالها الخالدين وقد أدو رسالتهم وتزعجها حينما تدخل صاغرة في سلطة جبار عنيد»[1] .

فمن حق التاريخ فعلا أن لا يلتفت إلى أولئك اللذين يصفقون لغيرهم ولا يجيدون إلا الإشادة بما فعله سابقيهم في مجتمعاتهم حتى يصطدموا بالذل تحت يد من تأكد من خنوعهم وانهزاميتهم فيستبد ويتجبر في السيطرة عليهم وذلك لأنهم هم من قادوه لذلك بسلبيتهم التي لا تكاد تزول.

ويرى **مالك ابن نبي** أيضا عند حديثه عن العالم العربي والواقع الجزائري تحديدا أن ما يفسد عليها إقامة الحضارة هو تغيرها للخذلان بخذلان آخر في ثوب معصرن ففي حديثه عن الواقع الجزائري يقول «إذا كان غول الدراويش قد

[1] نفس المرجع، ص 20.

صرعه الإصلاح فإن غولا جديدا يمكن أن يظهر أيضا وهو لا يشترط وجود أولياء وأحجبة وحروز ولكن أوثان سياسية وبطاقات للتصويت هذا هو الصراع بين الفكرة والوثن الذي أصبح طابعا جديدا للمأساة الجزائرية»[1].

فلطالما استغل الدين لتحقيق التبعية خوفا من النواتج الميتافيزيقة التي قد تلحق المخالف لهذه الأفكار الدينية في أبعادها المختلفة، والآن تغيرت الفكرة الدينية إلى فكرة سياسية وتغيرت الآليات أيضا من هتاف الأولياء والزوايا والداراويش إلى خطابات الديبلوماسين والساسة وتغير المبدأ أيضا من التخويف بالميتافيزقيا إلى التخويف بالاستبداد بالحقوق المدنية، ففي الحقيقة لم يتغير شيء فقط بدلنا ثوب السلبية القديمة لنضع ثوب السلبية الجديدة مثل الحرباء التي تغير حالتها من لون إلى لون ولكن تظل حرباءا مثل ما كانت عليه أساسا.

وفي موقع آخر حين وصف **مالك ابن نبي** العالم الإسلامي المليء بالعلل إلى درجة أنه يئن من مرض مستفحل في كل جسده، وليست المعضلة هنا ولكن المعضلة هي أنه عندما بحث عن الدواء اتجه إلى صيدلية كثيرة الأدوية لينهل من آلاف الزجاجات ليواجه آلاف الأمراض، فحتى الأدوية هناك من تتفاعل مع بعضها لتحدث أثر سلبيا.

«هذا هو العالم الإسلامي الذي دخل إلى صيدلية الحضارة الغربية طالبا الشفاء ولكن لم يعرف بعد من أي مرض؟ وبأي دواء؟ وبديهي أننا لا نعرف شيئا عن مدة العلاج ... فالعالم الإسلامي يتعاطى هنا (حبة) ضد الجهل، ويأخذ هناك قرص ضد الاستعمار وفي مكان قصي يتناول عقارا كي يشفى من الفقر؛ فهو يبني هنا مدرسة ويطالب هناك بالاستقلالية وينشئ في بقعة قاصية مصنعا ولكننا حين نبحث عن حالته عن كثب لن نلمح شبح البرء أي أننا لن نجد **حضارة**»[2] وذلك لأن آليات البناء ليست لنا ولم تنشأ أساسا لنا .

هنا أين أشار **مالك ابن نبي** إلى إشكالية أخرى تعيق الحضارة بمجتمعاتنا وهي هوى التكديس فتجد «أربع مكيفات بغرفة واحدة أو خمس هواتف على مكتب واحد أو عشرون عاملا في مكان يشغله خمس عمال أو أقل وكأن المشكلة في الوسيلة لا في غيرها»[3].

فكما سبق الذكر في بداية هذا العرض أن الحضارة هي التي تصنع منتجاتها بذاتها «فلا يمكن أن نتقدم بأن نجلب وسائل تعبر عن التقدم (الآلات..) بل الآلة لها سياق تاريخي لانبثاقها فالطابعة في الدول الغربية قبل أن تكون كذلك كانت فكرة مضمرة ثم بدأت تنبثق إلى أن ظهرت أي هي وليدة ذلك المجتمع وجزء منه فلا يمكن أن تأتي بها إلى مجتمع آخر وتطلب منه التقدم ...أين ننقل النتيجة دون أسبابها ننقل النتيجة بعيدة عن المحتوى الذي قامت فيه ومن أجله»[4].

بل حتى أننا عندما نكدس الوسائل لا نرفقها بالحكمة في استغالها «في حين كان علينا أن نسعى إلى ترويض أنفسنا و أسرنا وطلابنا على استخدام المنتجات التقنية الحديثة فيما يعود علينا بالنفع، وذلك لأن كل منتجات الحضارة

---

[1] نفس المرجع، ص 9.

[2] نفس المرجع، ص 42.

[3] مالك ابن نبي ، القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، 2000، ص 51.

[4] نفس المرجع ،ص 44

قابلة لأن تستخدم بطريقة ترقى بالإنسان وتدفعه نحو الأمام، كما أنها قابلة لأن تستخدم على نحو يجلب لها الانحطاط فالهاتف الجوال قد يكون آلية للتواصل وقد يكون آلية لتنظيم الجرائم...»[1].

«حتى أنه لا يقاس تقدم الإنسان بكثرة اختراعاته واكتشافاته ولا بكثرة تجاربه ولكن بتحقيق إنسانيته وتفوقه على ذاته كما أن المدنية الحقة ليست هي التي توفر للناس الكثير من السلع و المرفهات ولكنها هي التي توفر لهم السعادة والاستقرار والهناء»[2]

حتى أننا عند ذهابنا إلى الغرب منبهرين بحضارتهم ونخال أن هذا هو أعلى مستوى يمكن أن تصل إليه الحضارة فنجلب كل ما تطاله أيدينا إلى مجتمعاتنا معتقدين أننا أذكى منهم وأننا نستغل ما ينجزونه؛ وفي حقيقة الأمر نحن لا نفعل إلى ما يفعله الساذج الذي تسلبه بهرجة الأشياء؛ بل حتى عندما نذهب إليهم لا نتقن تحديد وجهتنا فأين يجب أن نذهب لنأخذ المنتجات الفعالة؟؟

يقول **مالك ابن نبي** واصفا مجتمعاتنا أيضا أن المتجهون إلى الغرب اثنان إما طالب مجتهد وإما سائح مهتم، الطالب يذهب إلى الكلية والمكتبة لينهل كل ما توصلوا إليه وهو يحصل على الأفكار بعد أن أصبحت في المقبرة، أي أن الغرب أوجدها وقضى منها فعاليتها فانتهى منها فأصبحت أفكارا بالية مرصوصة في كتب قديمة يعتبرها الطالب زاد العلم وأمهات الكتب وهي أساسا ميتة في مجتمعها أما السائح فيذهب إلى مرقص أو مقهي يذهب إلى مكان تعفنت فيه الأفكار ويظل بذلك قابعا في هذه المهزلة ...من ذلك يأتينا الأول من مقبرة والآخر من مزبلة»[3] .

بذلك فالمجتمعات الشرقية المعاصرة بحسب **مالك ابن نبي** لا تحسن إتباع الوجهة نحو الحضارة فحسب بل قد ضلت عن طريق الحضارة بالمرة، وهذا لكونها تقنع نفسها بأنها في قمة حضارتها وذلك بآليات تكرس ذلك الوهم الذي تقتنع به على الدوام، فهي لا تنفض نفسها من السلبية إلا لتعود إليها في حلل جديدة مكسوة بموضة عصرية.

---

[1] عبد الكريم بكار، بناء الأجيال، كتاب المنتدى "سلسلة الكتاب الرقمي"، بدون ذكر دار النشر، ب ب ، ب ت ،ص 8

[2] نفس المرجع ، ص 25.

[3] مالك ابن نبي ، في مهب المعركة، دار الفكر المعاصر،ط 3 ، دمشق، 2002، ص ص 127 . 136.

❖ **المبحث الثالث: رباعية المعادلة الحضارية عند مالك ابن نبي:**

يرى مالك ابن نبي أن مشكلة المجتمعات هي أساسا لا تنفك من مبتغيات الحضارة «فمشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل أي مشكلة ما لم يرتفع بفكره إلى الأحداث الإنسانية وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارة أو تهدمها وما الحضارات المعاصرة والحضارات الضاربة في ظلام الماضي والحضارات المستقبلية إلا عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن فهي حلقات لسلسلة واحدة تؤلف الملحمة البشرية منذ أن هبط آدم على الأرض إلى آخر وريث له فيها»[1].

هذه هي الحضارة في فكر **ابن نبي** الذي حاول أن يميزها عن غيرها حيث يرى أنها تحليلاته للحضارة تختلف عن تحليلات سابقيه «فكل مصلح حسبه قد وصف الوضع الراهن تبعا لرأيه أو مزاجه أو مهنته فرأي رجل سياسي كجمال الدين الأفغاني أن المشكلة السياسية تحل بوسائل سياسية بينما قد رأى رجل دين كالشيخ محمد عبدو أن المشكلة لا تحل إلا بإصلاح العقيدة والوعظ...الخ على حين أن كل هذا التشخيص لا يتناول في الحقيقة المرض بل يتحدث عن أعراضه»[2].

حيث نجد أن المصلحين كانوا حينها يتجهون إلى زاوية ضيقة لمعالجة أزمة الحضارة ولا يتبنون الشمولية في النظر إليها، هذه الشمولية التي هي حسب اعتقاد **مالك ابن نبي** قد حاول إدراكها وتبنيها من خلال إسهاماته، هذا ناهيك عن خلط أولائك المصلحين بين المشكلة الحقيقية وبين آثارها .

أولا: تحليل المشكلات الثلاث للحضارة (عناصرها):

يرى **مالك أن نبي** أن مشكلة الحضارة تنحل إلى ثلاث مشكلات هي :

. مشكلة الإنسان.

. مشكلة التراب.

. مشكلة الوقت "الزمن".

هذه هي محددات المعادلة الحضارية حسب مالك ابن نبي حيث هذه الحدود حسبه غير قابلة لأن يستثنى أحدها وفي التالي تفصيلها:

أ. **مشكلة الإنسان:**

تعتبر الحضارة أساسا آلية لإشباع الحاجات الإنسانية للأفراد وذلك من خلال ما تنتجه[*] الأمر الذي يجعل وجود الإنسان في حلقة الحضارة ضروري ولا تقوم بدونه.

وحسب مالك ابن نبي أن الإنسان يؤثر في المجتمع بثلاث مؤثرات هي:

فكره، عمله، ماله.

---

[1] مالك ابن نبي، شروط النهضة، مرجع سبق ذكره، ص19.

[2] نفس المرجع ، ص 41.

[*] هذا كما سبق الذكر عند التعريف بالحضارة.

الأمر الذي يجعلنا بحاجة إلى توجيه الفرد في ثلاث نواحي هي:

الثقافة، العمل، رأس المال

شكل رقم 02:

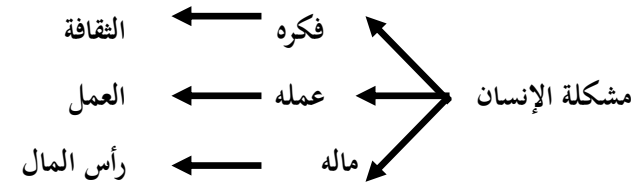

❖ **توجيه الثقافة:**

بداية يمكننا الإشارة إلى أن الثقافة عموما يعنى بها كل ما يكتسبه الفرد كنتاج لوجوده في مجتمع ما؛ كما أنه عند محاولة تحديدنا لمفهوم الثقافة نجد أنها عديدة و مختلفة في دلالاتها فكثيرا ما كانت تعني التعلُّم والتفقه، فالفرد المثقف «هو الذي استطاع أن يحصل على درجة تمكُّن في بعض مجالات المعرفة»[1] هذا في معناها البسيط المحدود الذي شاع التعامل به كثيرا وكان ذلك حتى في الأوساط الشعبية، وهي في تعريف آخر لـ "**كلباتريك**" «تعني كل ما صنعته يد الإنسان وعقله من أشياء ومظاهر في البيئة الاجتماعية، أي كل ما اخترعه الإنسان أو اكتشفه وكان له دور في العملية الاجتماعية »[2] وهي حسب تعريف **مالك ابن نبي** «مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته ...فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة»[3].

كما أنه يحدد عناصر الثقافة بأربع عناصر هي[4]:

- ❖ عنصر الأخلاق لتكوين العلاقات الاجتماعية.
- ❖ عنصر الجمال لتكوين الذوق العام.
- ❖ منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام.
- ❖ الفن التطبيقي الملائم لكل نوع من أنواع المجتمع أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون.

---

[1] محمد الجوهري، علياء شكري، مقدمة في دراسة الأنتروبولوجيا، الدار الدولية، القاهرة، 2008، ص 112.

[2] ، [3] عبد الله الرشدان ، علم اجتماع التربية، دار الشروق ، الأردن، 2004، ص ص 227، 228.

[3] نفس المرجع ،ص77.

[4] نفس المرجع، ص 87.

أي أن للثقافة ركن معنوي وركن مادي وآخر جمالي، و**توجيه الثقافة** يعني تنقيتها من الشوائب التي تكرس فيها سلبيات معيقة لمعطيات الحضارة ويعني أيضا «تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي والاجتماعي مما فيه من عوامل قتالة ورمم لا فائدة منها حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية للحياة»[1] كما أن الثقافة حسب مال**ك ابن نبي** لا تخص فئة دون الأخرى «بل تمس كل فرد في المجتمع (الجاهل والعالم).

وذلك لأننا كثيرا ما أصبحنا نشعر بانتشار مرض قد يكون مزمنا إن لم نستأصله هو بنعت **مالك ابن نبي** "**مرض التعالم**" حيث كما في المجتمع أصحاب الثياب البالية هناك حاملي اللافتات العلمية وهم الذين يجعلون من العلم آلة للعيش وسلما يصعدون به إلى منصة البرلمان وهكذا يصبح العالم مسخة و عملة زائفة...»[2]. فهؤولاء من يشوبون الثقافة حسب مالك على غرار الأمي أيضا.

❖ **توجيه العمل:**

ونقصد بها تأليف الجهوذ نحو ذات الهدف أو «سير الجهوذ الجماعية في اتجاه واحد بما في ذلك جهد السائل والراعي وصاحب الحرفة والتاجر والطالب والعالم والمرأة والمثقف والفلاح لكي يضع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء»[3] .

حيث الهدف من ذلك تفعيل الجهوذ «وتغيير وضع الإنسان وخلق بيئته الجديدة ومن هذه البيئة يشتق العمل معناه الآخر»[4].

❖ **توجيه الرأسمال:**

وإضافة إلى التوجيهات الثلاث المذكورة أعلاه أضاف **ابن نبي** ثلاث نواحي أخرى مكملة للأولى وهي:

❖ **المرأة:**

حيث اعتبر **مالك ابن نبي** المرأة ركنا هاما في تشيد الحضارة إلا أنه يرى أنها لم تدرك وجهتها بعد أو أنها لا تحاول إدراكها أصلا «إذ على المرأة أن تعرف أين تسير فهي تحاول مجابهة الرجل وفقط، وتجعل من ذلك قضية لها في حين قضيتها هي ما الذي تقدمه للرقي بالمجتمع وبأي أسلوب يمكن للمرأة المسلمة أن تقوم بدورها بعيدا عن التوجيهات الغربية ....كما قد ألح ابن نبي على ضرورة الابتعاد عن النظر للمرأة بالمنظار الجنسي الفرويدي حيث أولئك المتمسكين بإبعاد المرأة عن المجتمع والمؤمنون بضرورة إبقاءها في سجنها التقليدي لعدم الفتنة وهو مبرر جنسي مصبوغ بصبغة المحافظة على الأخلاق أما من يريدها فاتنة في الشوارع فهو حديث غريزي مباشر لا يحتاج إلى توضيح...»[5].

---

[1] نفس المرجع ،ص 80.

[2] نفس المرجع ، ص 84.

[3] نفس المرجع، ص ص 107 ،108.

[4] نفس المرجع، ص ص 107 ،108.

[5] نفس المرجع، ص 115.

فمالك ابن نبي يريد من المرأة أن تعي دورها الحضاري وما هي اللبنة المكلفَة هي بوضعها في المسيرة الحضارة، كما يدعو إلى ضرورة الخروج من الحلقة المفرغة التي نكثر فيها من الحديث عن أولوية المرأة على الرجل أو أولوية الرجل على المرأة لأنها نقاشات تتجه بنا نحو روافد محدودة الأفق .

والمرأة الحضارية هي المرأة التي تتكيف بأخلاقها ومبادئها وتفكيرها وزيها لترسم وتبني بعضا من بنيان مجتمعها والتي تناهض كل موازنة لها مع المرأة الغربية فهي كما تريدها حضارتها أن تكون لا كما يردها الغرب أن تكون.

❖ **الزي:**

لطالما اعتبر الزي جزءا من الثقافة وعنصرا عاكسا لها بل إن الزي يعكس حتى حالة هذه الثقافة وحالة حضارة مجتمعها بين علو و دنو ويعكس وظيفة الفرد في حضارته ومن مثال ذلك الشعب الياباني عندما قرر تشيد الحضارة اليابانية فإنه على اثر ذلك تخلى عن لباسه الراقي المسمى **الكيمونو** وارتدى إلباس الأزرق الذي يناسب عاملا ميكانيكيا.

فاللباس له انعكاس على نفسية الأفراد «وإذ كانوا يقولون أن القميص لا يصنع القصيص فإنه يمكن قول العكس إذ القميص يسهم في تكوين القصيص إلى حد ما لأن اللباس يضفي على صاحبه روحه، ومن المشاهد أنه عندما يلبس الشخص لباسا رياضيا فإنه يشعر أن روحا رياضية تسري في جسده ولو كان ضعيف البنية وعندما يلبس لباس العجوز فإن أثر ذلك يظهر في مشيته وفي نفسه ولو كان شابا قويا»[1] .

فالزي له تأثير واضح على ديناميكية الفرد وركوده بل وهو كما سبق الذكر رمز للحضارة ورمز للتخلف والذي يكون من السخف التمسك بهذه الأخيرة أي الأزياء التي تعبر عن خذلان حضاري في حقبة ما ونذكر مثال ذلك الطربوش الذي وظفه مالك ابن نبي في حديثه عن الزي حيث قال« هل يا ترى نتمسك بالطربوش ذلك اللباس الذي شوهته أجيال من البشوات والخدم اللذين تطوعوا في صفوف الاستعمار؟.

إذن إنه من الغباوة أن ننكر مشكلة الزي المناسب لرجال النهضة ونسائها ولكننا نكون أكثر غباوة إذا ما استسلمنا في ذلك إلى التقليد البحث بلا التفات إلى مقتضيات أحوالنا من حيث دستور الجمال »[2] .

❖ **الفنون الجميلة:**

وإضافة إلى المرأة والزي يضيف **مالك ابن نبي** الحديث عن الفن حيث يرى أن أهمية الفن الجميل «تبرز في أحد موقفين فهو إما داع إلى الفضيلة و إما داع إلى الرذيلة فالرقصة مثلا إما أن تكون قصيدة شعورية أو حركة جنسية... فالرقصة قد تطورت فأصبح فيها شيء من الشعر عند اليونان وشيء من التصوف في طقوس بعض الأديان وفي كل هذه التطورات نجد الأخلاق قد حددت أهدافها ومراميها وبقية الوسيلة التي تعطي الرقصة صورتها الفنية»[3] .

---

[1] نفس المرجع، ص 123.

[2] نفس المرجع، ص 124.

[3] نفس المرجع، ص 124.

فالفن يعبر عن قيمة الحضارة وعمقها وقد يعتبر حتى وسيلة من من وسائل بناء الحضارة ودعمها، لذا نجد مالك ابن نبي دعا إلى عدم اقصاءه في التشيد الحضاري وإنما يجب إخراجه من مستنقع الاستغلالية والسلعية الجنسية واللاأخلاقية.

ب. التراب:

إن التراب اعتبره مالك ابن نبي العنصر الثاني من العناصر المتممة للمعادلة حيث يعني به أن تستغل كل الموارد و عدم الاستسلام لقساوة الأرض أو المناخ...الخ.

«ونحن حين نتكلم عن التراب لا نبحث في خصائصه وطبيعته فليس هذا موضوع اهتمامنا ولكننا نتكلم عنه من حيث القيمة الاجتماعية للتراب المستمدة من قيمة مالكيه .... حيث أننا أصبحنا نرى أن أصحاب الأرض وقفوا منه موقف الضعيف الجبان إذ فر ساكن البادية ذلك الرحالة الذي لم تبقى له أرض يحرثها ولا ماشية يحلبها، لم تبقى له إلا دابة يركبها ليفر فهو الآن تائه حائر بين الصحراء التي تبدده وبين المدن الساحلية التي ترفضه أو تبتلعه حيث تجعل منه إنسانا منبوذا»[1] .

ج. الزمن:

أما عن ثالث عنصر من عناصر المعادلة الحضارية هو الزمن هذا المفهوم الذي بات مستعصر إدراكه ولم نعد نستشعر قدره ودوره الذي ربطه مالك ابن نبي ببناء الحضارة وجعله عنصرا لا تقوم بدونه هذه الأخيرة .

ومن ما هو جميل أن **مالك ابن نبي** قد بدأ كلامه عند حديثه عن الزمن والحضارة بالمقولة التالية التي مفادها أن **الزمن نهر قديم يعبر العالم منذ الأزل** أي أن الزمن لم يوجد لنا ولا ينتهي بانتهائنا فالزمن انطلق بانطلاق الحياة وهو لا يقف عند شعب ولا عند حضارة فهو لا ينتظر أفاقة الغافلين بل يقطع مار دون أن يتردد في السير أو أن يقف.

«حتى أن طريقة قضاءنا لأوقاتنا هي نتيجة للطريقة التي ننظر بها إلى الوقت والطريقة التي ننظر بها إلى الوقت مرتبطة بأشياء عديدة منها تربيتنا ووعينا بالتحديات المعاصرة وأهدافنا في هذه الحياة وسيطرتنا على رغباتنا وصلابة ارادتنا ورؤيتنا لمجمل اللأولويات»[2].

وعالمنا العربي من بين أهم أسباب أزماته هو هذر الوقت وعدم امتلاك وعي تنظيمي للوقت وخاصة وقت الفراغ بشكل هادف ومثمر «فحين ينام الإنسان أكثر من 8 ساعات في اليوم أو يتقلب على فراشه تاركا خلف ظهره المهام التي عليه أن ينجزها فإن داءه آنذاك هو الكسل وهبوط الهمة.

فالشعوب المتقدمة تقضي الكثير من أوقات الفراغ في الرياضة وتعلم مهارات جديدة على حين أن أبناء الشعوب المتخلفة يقضون الكثير من فراغهم في الجلوس على أبواب بيوتهم أو في الاستلقاء على فرشهم أو في السهر و السمر إلى ساعات الفجر الأولى»[3].

---

[1] نفس المرجع،ص 131

[2] عبد الكريم بكار ، عصرنا والعيش في زمانه الصعب، دار القلم، دمشق، 2004، ص 103.

[3] نفس المرجع، ص 106.

فكما نرى أن الزمن من شأنه رفع مجتمع وحط آخر والفارق لدى الاثنين هو الاستغلال الأمثل للوقت الذي لا يتأتى لأحد أي كان.

ثانيا: الفكرة الدينية ومسمى المركب الحضاري:

الإنسان والتراب والزمن ثلاثية هي بحسب **مالك ابن نبي** أعمدة الحضارة ولا تقوم بدونها ولا يمكن أن تشيد أي حضارة مهما كانت البدائل عنها هذا كما يرى **مالك ابن نبي** في المقابل «أن وجود هذه العناصر الثلاث لا يعني بالضرورة قيام حضارة بل هناك عنصر رابع وظيفته التوفيق وهو ما أطلق عليه اسم **مركب الحضارة** وهو العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاث بعضها ببعض»[1] .

فمركب الحضارة هنا بمثابة الملاط الذي يرص لبنات الحضارة وقد أشار **ابن نبي** أن ما سماه مركب الحضارة عنى به تحديدا **الفكرة الدينية**.

«فالحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية ...ومن المعلوم أن جزيرة العرب مثلا لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة يذهب وقته هباءا لا ينتفع به لذلك فقد كانت العوامل الثلاث الإنسان والتراب والوقت راكدة خامدة وبعبارة أصح **مكدسة** لا تؤدي دورا ما في التاريخ إلى أن حركتها **كلمة اقرأ** ...»[2].

فالفكرة الدينية أو مركب الحضارة كما ينعتها **مالك ابن نبي** هي الوحيدة الكفيلة بتفعيل العناصر الحضارية الثلاث السابقة الذكر، ونحن بحاجة إلى هذه الفكرة مثل حاجتنا إلى الإنسان والتراب والزمن بل وبدونها لا نترقب أي شكل من أشكال الحضارة الحقة وذلك كون الدين له آلياته الخاصة في تحقيق الجدب و الترغيب في الأشياء الهامة لتشيرد الحضارة والترهيب والتنفير من ما من شأنه هدم الحضارة.

فالإسلام حين ما أتى وتشيدت على أثره الحضارة الإسلامية كان في الأساس يحمل فكرة عميقة لها شقها التعبدي وشقها الحضاري بالعمل والإخلاص والتوسع وترك ما ينتج عن إتباع الغرائز من انحرافات جمة ؛و في هذا الإطار نجد مالك قد ساهم في تجسيد كل كلامه السابق الإشارة إليه من خلال مخطط رأى أنه يلخص السير الحضاري على الأقل في عالمنا الإسلامي.

[1] نفس المرجع ، ص ص 46 ، 47.

[2] نفس المرجع ، ص ص 46 ، 47.

شكل رقم 03:مخطط الحضارة.

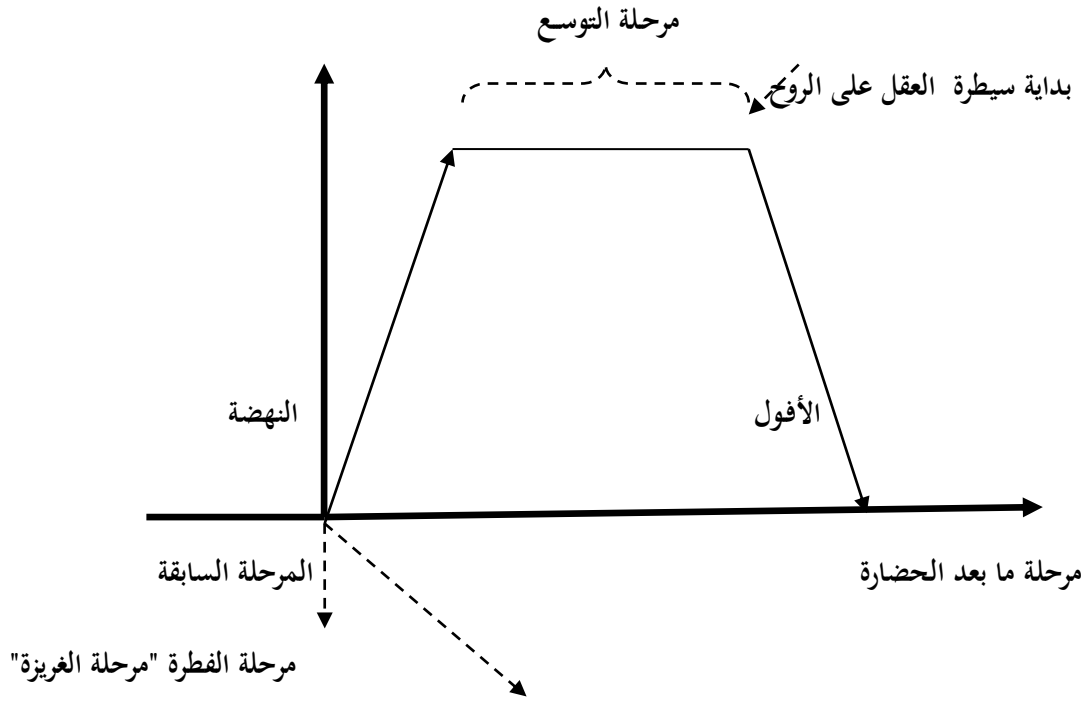

المصدر: مالك ابن نبي، شروط النهضة "بتصرف"، مرجع سبق ذكره، ص 66.

فكما هو بارز من المخطط أن بداية الحضارة وأفولها مرتبط بالغريزة اذ تقوم الحضارة عندما يحكم العقل هذه الغريزة ويكون أفولها إذا ما فقد العقل سيطرته عليها، وببداية الحضارة تجد نفسها أمام تحدي البقاء الذي تسعى إلى تحقيقه بالتوسع الذي يعمر حقبة من الزمن ليكون مصيره الانهيار بعودة الغريزة إلى السيطرة من جديد لتنتهي بدالك الدورة الحضارية حسب منظور ابن نبي.

خـاتمة:

إن الحضارة مفهوم عميق المبنى كثير الروافد فهو فن ومعمار، فكر وثقافة، علم وسلوك، وهو أشياء أخرى غير ذلك، إذ لا أحد ينكر أنها غلاف لكل اجتماعي في المعاش، فالفرد يعيش في الحضارة وبالحضارة وذلك كونها هي التي توفر له الوسط الراقي للحياة الراغدة، وهي التي تعلمه سبل التعامل مع هذا الوسط الاجتماعي.

لذا لا غرابة عندما نادى السوسيولجي مالك ابن نبي بمحليتها بل و قد ألح على ذلك، أي أن تبنى وتشيد من آلياتها وبأفكارها وبسواعد أبناءها؛ فالحضارة الحقة هي التي تجعل من التراب مادة ومن الإنسان فاعلا ومن الزمن تحديا لتفرض نفسها على من يهدد استقرارها ومزيد نهضتها.

تلك إذن عناصرها (التراب، الزمن، الإنسان) هذا الثالوث الذي أفاض مالك ابن نبي في شرح دوره في بناء الحضارة، إذ رأى أنه لا مجال لقيام هذه الأخيرة بدونها، الأمر الذي لا ينفي أيضا أن وجودها قد لا يكفي لتنطلق الحضارة لأننا نكون حينها بحاجة إلى من يلحم فراغات تساندها، و ذلك ما يفعله المركب الحضاري هذا المفهوم الذي أطلقة مالك ابن نبي على العنصر الرابع للمعادلة الحضارية و الذي رأى أنه هو من يجعل ثالوث الحضارة فاعلا وقد عنى به تحديدا **الفكرة الدينية** أي أنها هي من تفعلها .

فالدين هو روح تلك العناصر (التراب، الإنسان، الزمن) وهو من يدب الحياة فيها، تلك هي إذن الحضارة التي لا تنطلق إلا إذا ما سيطر العقل على الغريزة ويكون مسيرها الأفول والانهيار اذا ما انقلب منطق السيطرة وسيطرة الغريزة على العقل، مما يُكوِّن لنا الدورة الحضارية التي تنطلق من بزوغ الفكرة الدينية التي تعطي للعقل فرصة لتحكيم الفطرة لتعود إليها مرة أخرى وذلك بحالة أخرى مناقضة حيث حينها يفلت تحكيم العقل للفطرة فتموت الحضارة وتندثر تحصيلا لذلك.

أخير وكما نلمح أن موضوعا كهذا (الحضارة) هو في أساسه واسع التناول وكل زاوية فيه تكاد تستبد بالأهمية وتحتكرها لذاتها وذلك كون الحضارة دين ونفس وسوسيولوجيا وثقافة... وغيرها من ميادين العلوم الأخرى لذا نجد أن ما قمنا به من محاولة لعرض بعض اسهامات مالك ابن نبي تبقى شحيحة جدا بحقه، كما هي محاولة لا تنقص من قدره بقدر ما هو اعتراف بأهميته وبعمقه.

هذا القدر الذي أبانه مالك ابن نبي في جل إسهاماته إذ كان موضوع الحضارة الكلمة لا تفارق أسطره المكتوبة ولا عباراته الملفوظة فقد عرف بحق ثقل معانيها، إذ كان ينطلق من الماضي ليرى الحاضر ويستشرف المستقبل ليقول في النهاية **أن لا عزة ولا استقرار ولا رفعة ولا سيطرة دون حضارة محورها الدين ولا شيء غير ذلك يحل عوضا عنها**.

قائمة المراجع:

1) أحمد علي ويس، "مشكلات الحضارة في فكر مالك ابن نبي"، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، العراق، ب ت.

2) عبد الكريم بكار، بناء الأجيال، كتاب المنتدى "سلسلة الكتاب الرقمي"، بدون ذكر دار النشر، ب ب، ب ت.

3) عبد المجيد عمر التجار، فقه التحضر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999.

4) فضل الله محمد إسماعيل، الايدولوجيا وفلسفة التاريخ، بستان المعرفة، الإسكندرية، 2005.

5) مالك ابن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، 2000.

6) مالك ابن نبي، في مهب المعركة، دار الفكر المعاصر،ط 3، دمشق، 2002.

7) مالك ابن نبي، شروط النهضة، تر:عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ب ت.

8) مالك ابن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر:بسام بركو و أحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، 2002.

9) محمد الجوهري، علياء شكري، مقدمة في دراسة الأنتروبولوجيا، الدار الدولية، القاهرة، 2008.

10) عبد الله الرشدان، علم اجتماع التربية، دار الشروق، الأردن، 2004.

11) عبد الكريم بكار، عصرنا والعيش في زمانه الصعب، دار القلم، دمشق، 2004.